



« الرحيل في الليل »

للشاعر أبو ذكرو

كغيره يعيش موقف الشاعر كادعاء اجتماعي مشحون بالمنهجية والفرور، فهو بالكاد لا يقترب من هذه المساحة (النجسة)، انه يتقرب باعتبار قضية التقرب موففا انسانيا مطعما ببذرة الشجاعة ، انه يحضر بيننا بكامل هيئته ، أنفه ، وعينيه واذنيه وقدميه ، ولكنه في نفس الوقت يتبعد عنا بدخله ومفاراته الخاصة التي تنشب فيها معارك ضارية بين ما هو آت وما هو لاحق ، انه يدين العالم ويقرعه ولكنه لا يتقرب تاركا العالم ليقوم بهذه المهمة ضده .

ان الغربة التي تجعل من صاحبها مسكينا ومسحوقا هي التي تجعل من التجربة الفنية ايضا تجربة مهاجمة ومطرودة من قبل شراسة العالم ، ومن ثم فان مفهوم التقرب عند (ابي ذكرو) عندما يمارس ذلك يتحول الى مقولة كاملة يمكن ان تبرهن على ان صدقا ما يحدث في شعره .

على ان ذلك يسوفنا الى ان (ابي ذكرو) لا يستخدم اللفظة كذلك كوسيط اعمى يعبر الفياقي والجسور ويتوغل في ادغال مليئة بالظلمات والوحوش معتمدا فقط على حاسة اللمس ، وانما اللفظة في معظم قصائده تعطي حجما هو نفس حجم الصدى الذي يخرج من جسم ما ، فان نقره على التجربة بكل زخمها لا يمكن ان يعطي الا ذات الرنة التي تعكس لنا بنسبة التجربة وامكاناتها وابعادها ، انه لا يبق في طبل جلدي صغير مخنوق ليحاول عنوة واقتسارا ان ينتزع منه صوتا نحاسيا مصما للاذان ، فالأمة كوسيط عند (ابي ذكرو) تمتلك اشتراطات محددة ومقننة ضمن مجال التجربة الفنية ، فهو في محاولاته ابصال فكرته لا يتجاوز مقدرات الكلمة والمفردة والجملة باعتبار ان ذلك يمكن ان يمنح هذه العناصر ثقافة اكثر رؤوية اخصب واعمق ، ولكنه يبحث ويكتشف الى ان يمسك بالصورة في شكلها النهائي .

يقول (منير العكش) في دراسته (اللفظة الشعرية) في مجلة حوار العدد السابع في نقده سعيد عقل ونزار قباني « لعل هذا هو سبب العلة التي وسمت اداءهما بالسطحية والمباشرة (مع اختلاف الدرجة بينهما) بحيث احوالت الزهرة والفراشة والحلمة والربيع والغيمة والنهد والوشوشة في شعرهما الى (هارمونات) انشوية ادما تعاتبها ، ودمى لفوية لا علاقة لها بالكون والحياة ، ناسين ان طنا من هذه المفردات لا يبدع جملة شعرية واحدة ، فليس كما هي الحال في الطبيعة مفردة حسنة بذاتها ! انما يتحدد الحسن والقبح بالسياق والظروف التي تحيط بالمفردة » .

وبالمقابل وهذا ما اود التركيز عليه فان استنباط المفردات المعقدة

اذا كان شعر هذا العصر هو ذلك المسكون بالانهايار والشذوب والثورة والاعتراب ، او هو القائم على الاحساس بالفاجعة ، فان معادلا واحدا يتبقى لنا بكون ان تجربته يجب ان تدخل ضمن انصرخات الاخرى المطالبة بعالم افضل داخل اطار النسبية الفنية .

ذلك المعادل هو موضوع الجدوى لاختلافات الحاضر ، هل تصبح هذه الجدوى موضوعا للشعر ؟؟ هل يمكن ان تكون بديلا للياس الانساني الذي يصيب خارطة للندى شائكة ومعقدة على هذا النحو ؟

ان كل هذه التساؤلات الملهفة والقانطة تصل بنا في النهاية الى لاشيء موضوعي ومحدد ، كما انها يجب ان تكون كذلك . فاذا الفن يوما استطاع ان يوفر اجابات موضوعية ومحددة لجنون العالم وتمرده الجامح ، فانه حتما سيسقط في مستنقع العلوم العقلية التي حاولت تبرير القانون الطبيعي برده الى العناصر الاولى .

ان الشعر العظيم هو ذلك الذي يجعلك في حالة استجواب دائم ومستمر دون ان تعرف ما جربته ، وهو ايضا ذلك الذي يستحيل عليك معه معرفة ما اذا كنت واقفا تعيش ام حلما ، انه نسيج الحلم والواقع معا ، او انه الفيوبية والصحو في آن واحد .

ان الشعر المستيقظ دائما هو الذي ينتج عن تجربة فيسنة متلقية اكثر من كونها مرسلة (بكسر السين) ، وهو بذلك يعطي احساسا بمادية الاشياء بشكلها (الفوتغرافي) لا بشكلها الفاقد للوعي ، اما الشعر انجماع لتفقدان الوعي ومادية الاشياء فهو الحضور التكاملي للتجربة الفنية ، وهو في النهاية الذي يشير بالحركة دون ان يستنطقها .

من هنا فان نصف الاجابة التي يقدمها عمل فني ما عظيم ان يقابله النصف الاخر الصادر عن ناقد ما عظيم او من قارئ ما به روح الشعر ، ورغم ان كل ذلك فان كل الخطوات ان تتحقق بما يود ان يعطيه الشعر من اجابة ، ولكن خطوة واحدة نحو هذه الاجابة هي التي تتم .

حرصت على هذه المقدمة التي اعتقد انها مجرد محاولة لفهم الشعر ، لفهمه لا بكونه ذلك السالب من الابداعات الفنية ولكن بكونه سالبيا وموجبا في نفس الوقت من صروب الفن . واذا كان الامر يطرح في النهاية عالما بهذا المعنى ، فان الحديث عن ديوان (الرحيل في الليل) للشاعر (عبدالرحيم ابي ذكرو) يجب ان يكون من ذلك المنطلق .. لا كغيره من بعض شعراء جيلنا يناقش (ابي ذكرو) قضايا كالتقرب والحب والثورة بشكلها (الطوبغرافي) الجامد ، ولا



عبد الرحيم ابو ذكري

المساكين . ١

في وجهنا بين الشجر
تفجؤنا الدهشة من رتابة المطر
والبحر اذ يطل دون سابق اتفاق
ندهش لحظتين
يفقد الوجه صفاءه ورونقه
وتلصق الدهشة انفها بنا
وتبسط الرغبة يدها ذات الاصابع المتصقة
فتنتهي حياتنا في الاخرين
يا مرحبا بالعمى والمعديين والمنكسرين
هاكم سماءنا المحترقة .

نجبهم للحظتين
ثم نعود بعدها للشرنقة .

من ديوان « الرحيل في الليل »

الامس يحمل العبيد في القارب للسخره
واليوم ساكت متخوم
كلاهما بوابة تفضي الى الاخرى
باب الى باب .. ومن هناك للرحيم

الاصدفاء اقدماء يدفعوننا للاحتضار
واصبحوا لا يلهموننا الرغبة والصدود
وعبثا نخدعهم بالابتسام
وبالعيون الضيقات ملؤها الشرود
صاروا مساكين مضيئين دونما اسرار
تضفت زرا فاذا الضحكة نفسها
القصة نفسها النظرة نفسها والانتكسار
ينفتحون كالجمرة كالبللور كاللؤلؤ لحظة
ثم تموت النار .

تفجؤنا البيوت اذ تبرز فجأة

ذروني بريشي القديم
زملوني بحلمي الهشيم
غير ان الطيور الكبيرة
الطيور الجسورة
نفضت ريشها ثم طارت
والسماوات خارت وغارت

وتلاطمت الانجم

وتفصد منها الدم

وتعطل بحر الظلام

فوق ذاك الحطام

وجم الطير في برده واعتداده

وتفطى بوحدته وانفراده

وطويل سواده

حالا ان يطير ولكن بلا اجنحة

ان يسود الفضاء ولكن بلا اسلحة .

ان يطوف طويلا

في بروج السماء طويلا طويلا

يحاول (ابي ذكري) هنا اقامة دلائل على ان العجز الانساني
في العثود على هوية الحرية الخصوصية للطموحات الفردية ضمن
اطار الكون انما ترتد باستمرار بفعل الكواكب والاسوار التي تنمو
وتتكاثر في زماننا هذا من جراء الممارسات العسفية التي توجه ضد
العالم بشليكه الظاهري والباطني ، هو في محالته عبس رؤيا
تجاوزية لصنمية الواقع حضوره البليد انما يقرر كون ان الصفاء

وذات الرنين المتضخم والتفتيب عنها بهوس يصل جلافة المسعى لا
يمكن ان يؤدي الى الشعر العظيم .

ان (منير العكش) يطرح قضية ذات مسارين ، احدهما ان
الشعر بكونه طموحا قائما على الموازنة بين العلم واتواع لا يمكن
ان يتحول بوساطة عادية الى يقين انساني عبر المباشرة وفي ذات
الوقت ويكونه هذا الطموح المتوازن فان هذا الشعر سيشجع موتا
ايضا ان حاولنا تركه لوساطة متضخمة ومدعية ومتجاوزة لحجم
التجربة وابعادها وتركيب رؤيا الشاعر صاحبها .

وكما اكد (العكش) فان طنا من المفردات المتسرة والمدعية
لا يمكن ان يخلق صورة شعرية واحدة مقنعة .

فمن هذه الاشترطات النقدية يمكن ان نتناول بعض اشعارالرحيل
في الليل (لابي ذكري) فابي ذكري رغما عن انه يرفع رايات مسألة
في بعض تجاربه ، وهذا ما يبرز بان حسا ثوريا رومانسيا يمتلك
عليه نواصيه مما يجعله في معظم الاحيان يختشي ويدخل في اظافره
امام ما يحدث في عالمه من احباط وخيبة ، الا انه في مواقع اخرى
سرعان ما يطرد عنه هذا الاختشاء ويحوطه الى رفض واع مستمد من
حده التأمل بالاشياء والممارسة .. وعلى امتداد عدة قصائد يبحث (ابي
ذكري) في شخوص المهاجرين والمراكب والبحار والطيور عن التوازن
واليقين الذي يصاب بالانهيار والمباغتة داخل اطار قضايا كالحسب
والهزيمة والوضوء والدم .

فال طير حزين

افتحوا لي بوابتي المفلقة

افتحوا لي .. افتحوا لي

ان كان هذا عصرنا ، فاني اهجم في ضراوة عليه
واني من بعد (اذكم)
ابول فوفه وازدره
اصرخ فيه : لا
لو هجم التار : لا
للسوم للراحة : لا
للإبتدال : لا
وللسفرط : لا

للمرة الوحيدة يتخلى (ابي ذكري) عن توريته الرومانسية الي
احكمت قبضتها في عدة قصائد من الديوان تناولنا بعضها على
سبيل المثال حيث كان يعتمد الانتظار والرجاء والتاسف نيابة عن
العالم ليقم مكانها توريه بها كثير من الشراسة حيث يبرز ذلك
في النفس الشعري السريع المتلف باستخدام كلمات مثل (اصغ)
(يا زمن يا زمن) وتكثيف الاصرار باداة النفي (لا) ، حتى يبلغ
الغرف منه مبلغا يستأذنا فيه بمحاكمة هذا العصر اسوا وابشع
محاكمة في سياق عدة اتهامات يوجهها الشاعر له ، وذلك بالتبول
على مغطيات المعهر والابتدال التي تفت شاهدا على الخلخلة الاخلاقية
السائدة .

وبينما يوجه ضربات ملاحفه ، ويمارس هجمات تدميرية مبالغه
ضد هذه الصبغ المشوهة المتأكله يصرخ في النهاية .

لو هجم التار : لا
للسوم للراحة : لا
للإبتدال : لا
وللسقوط : لا

ان التحولات الجديدة في مفاهيم دلالة الطبيعة والماضي والحلم ،
تخلط وتتفاعل فتنتج اصواتا والوانا ورموزا ذات فدره عجيبة على
تفجير الاحساسات وجعلها متأهية لتقبل المزيد من الوعي بمشكلات
(الانسان الردة) وبينما يتجه (ابي ذكري) لتوليد رؤيا ضاربة
في الرفض بسكليه الرومانسي اثوري والثوري الجامع احيانا ، يحاول
ايضا توليد حركة وطاقة تعطي للقصيدة عنده محتوى حيا وخصبا ،
ثم فرزا تلقائيا وتصوبا محكما للوعي بالذات ، واذا طرحنا ايضا
معضلة الفموض في الشعر فانتا نجد في معظم قصائد الشاعر ان
الفموض ليس ذلك التخبط (الديقوجي) القائم على العشوائية ولا
هو الحشد الصوري الذي يتم بلا نهينات وتحديد ، وانما نلقاه
بنواتر بوعي متوهج وواثق .

غير ان (ابي ذكري) وهو في تحوله الكبير يجتاز تصورا جديدا
للشياء ضمن دائرة الرؤية الشعرية ، فهو بعد حضوره من
(موسكو) حيث اغترب جغرافيا لعدة سنوات استطاع ، وهذا ما نلمسه
بالمقارنة الى اشعاره التي كتبها في مرحلته الطلابية ، ان يتجاوز
اشكاله القديمة ذات البنى شبه التقليدية الى اخرى جديدة اخذت
الكثير واكتسبت الاكثر من جراء قراءاته للشعر الروسي الحديث .

وبقراءة قصائد له ضمها ديوان (الرحيل في الليل) وهي التي
سجلت في اعوام ٦٤ - ٦٥ او في الستينات عموما نجد ان تلك
المرحلة تميزت بتجارب خصوصية ليست ذات وجدان جماعي ، ثم
انها كانت تقع اسيرة لعنصري الزمان والمكان مما جعلها اقرب الى
التوفيقية منها الى الايمائية التي توفرت في المرحلة السبعينية .

ولما كنت قد قصدت ان لا اقترب بالتحليل والكشف عن تجارب
واشكال تلك المرحلة لانها تحتاج بدورها الى اقامة دعوى كاملة
وتفتيت وتعدين تعطي عملياته نتائج نقدية معينة ، فاني اكتفيست
بالتعرض متواضعا (لابي ذكري) الذي يرحل في الليل بمجاديف موزونة
وثابتة .

والاستقرارية واللهفة الى عدالة بعيد للعالم براءته وهدوءه لا يمكن
ان تتحقق الا عبر هذا الصراع الذي يسود الساحة الانسانية ،
فالمطالبة بفتح الباب ، وتكرار افتتاحها لي ، افتحوا لي ، انما تؤكد
بان رفضا وضيقا شديدين يصلان حد اليأس قد بلفا بالشاعر في
مساميه نحو الانطلاق والتخلص والتحليق عبر اجواء نظيفة ، او انه
البحث عن الحق في الحب والارادة والبوح ، ان مفردات (كالريش
القديم) (والحلم الهشيم) ليست سوى الحنين الجارف لسعادة
والقدرة التي ضاعت او اغتصبت اغتصابا عندما كان الانسان يحضر
بكامل اشتراطاته الاولى ، ككائن ممتلىء بالحريسة والحركة والظوح .

كما ان صورة انظيوار الكبيرة بجسارتها وتخليها والجو البركاني
الممزوج بتلاطم السماوات والدم والبحر والظلام انما تمهد لحو درامي
عنيف تبرز من خلاله مواقف الاستسلام والعجز الذي يخيم على النفس
ويجعلها تمشي ولكن بلا اجنحة ، وان تسيود الفضاء ولكن بلا
اسلحة ، غير انه ورغمما عن كل هذه الخيبة اترافدة والمنمطة يبقى
الحلم هو التيار الوحيد الذي يسود التجربة الفنية في مجمل عضوية
القصيدة ، ويظل الشاعر منتظرا ان ينحول الحلم يوما ما الى فدره
ما فاعلة في اعاده التوازن بين الممكن والمستحيل ، وكما في هذه
القصيدة فان (ابي ذكري) في قصيدته (نيس عن العجب) يطرح من
خلال (البواخر هدارة في اعالي البحسار) : (نفاث انحدود)
(واحزمة الطائرات) (وقتال الزمان القبيح) نفس الحنين وامنيات
الاختراق والتدمير والوصول الى قضية التوازن النفسي ، وانه في
بحثه عن (الجباه التي لم تظلمها قدم) (والاماني التي بعد لسنا
نراها) انما يلج ويلج في الخروج من هذه الغرف ذات الهواء الفاسد .

وحتى يقول

انظري ،

كلما نمح الارض من قلبنا

تصبح الارض منفي لنا

ولاشواقنا

وينطبق ذلك ايضا على قصيدتي (في هذا المساء) و (الرحيل
في الليل) اللتين تعطين (زما) ماسوية يقوم على الانتظار
باعتباره موقفا يمكن ان يحقق الجدوى الانسانية التي اشرنا اليها
في بداية هذه الدراسة .

وفي قصيدة (الرسو في كوكب الظلام) يطلب منا الشاعر
الاصفاء الشديد لان نهاية الزمان قادمة :

اصغ !

نهاية الزمان قادمة

الى هنا حيث تبع الشمس نهدها

وتحفر النهار في عميق تحدها

ويتناول العواء والرعاع

وحيث تنهض الحيتان

بين الذي نريده في اخر الدنيا

وما نملكه من سفن يملؤها الدخان

(الى ان يقول)

العالم ، العالم يستمر الان في سقطته الرهيبه

ينتظر التهشم الاتي من الاجيال

(الى ان يقول)

يا زمن الملوك والاباطرة

يا زمن الحشود والسلاح والسماسة

يا زمن العواهر المراهقات

يا زمن المساومات